المعايير النقدية والبلاغية في ضوء أحاديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم

الدكتور

يوسف عواد سالم القماز

الأردن– جامعة مؤتة

كلية الآداب– قسم اللغة العربية

المقدمةوملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة استنطاق ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث لها تعلق في جانب إثراء الملاحظات النقدية والبلاغية في الأجناس النثرية في بدايات أطوارها في عصر صدر الإسلام ، وملاحظة جوهر التغيير في النظرة إلى النقد والبلاغة ، ومدى البون بين السابق الجاهلي واللاحق الإسلامي ، وأين تكمن وجوه الشبه من جهة والمفارقة من جهة أخرى.

لقد اتضح في ضوء هذا البحث أن أثرا عظيما إيجابيا قد أحدثه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب المذكور، ويتمثل في وضع معايير نقدية بلاغية لها تعلق بشمولية التصور للكون والحياة ، وتوسيع مجال الفكروالنظر خاصة فيما يتعلق بما وراء الكون والطبيعة ، وتصويب النظر والاعتقاد بما يتلائم مع رسالة السلام الإسلامية العالمية الخالدة ، وتصويب العلاقات الفاعلة بين الإنسان وخالقه ، ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والموجودات الحية من حيوان ونبات ، وبين الإنسان والجمادات ، حيث تم استلهام كل هذه القضايا وإدراجها في ضوء مضامين الإبداعات الشعرية والنثرية وفنون القول المتوفرة آ نذك وتشكيلاتها التعبيرية.

وتردد صدى ذلك إيجابيا في أشعار الشعراء في عصره صلى الله عليه وسلم ، وكذلك في المقولات النثرية ، خاصة الجانب الخطابي ؛ حيث نجد انعكاسات هذه التصورات الجديدة في أشعار حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ولبيد بن ربيعة والحطيئة وكعب ابن زهير وأخيه بجير وغيرهم ممن

عاصر المصطفى صلى الله عليه وسلم كما تردد صداها عند الخطباء في عصره ، ومن جاء بعده من أمثال الصحابة : الخلفاء الأربعة وثابت بن قيس بن شماس وجعفر بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهم ، فقد كانوا خطباء مفوهين يستضيئون في خطاباتهم بخطابته صلى الله عليه وسلم ، وبآي الذكر الحكيم، ثم الكثير من خطباء بني أمية أمثال معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وخطبائهم أمثال سحبان وائل صاحب الخطبة الشوهاء ، وولاتهم من أمثال زياد بن ابيه صاحب الخطبة البتراء، الذي قال في وصفه الشعبي : " ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا ، فإنه كلما كان أكثر كان أجود كلاما " [١] والحجاج ابن يوسف الثقفي الذي يقول فيه مالك بن دينار : "ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ،فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج " [٢] ثم نجد صداها يمتد عبر القرون إلى يومنا هذا .

أما المقاييس الفكرية والمعايير النقدية في إطارها الفلسفي العام ، فإنا نجد اطروحاته صلى الله عليه وسلم تتكرر من خلال أطر شكلية وقوالب لفظية في الفكر النقدي العربي والغربي على حد سواء، تبرز وتتضح عندما

---

(١) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ط ٦، دار المعارف ، القاهرة ، ص ١٤ .

(٢) السابق ص١٤ .

يتقدم الإنسان من معنى الإنسانية خاصة في الفلسفة الواقعية التي تهتم بجوانب المضمون بالإضافة إلى شكلية التعبير ، وتضعف ويصيبها الاضمحلال كلما هبت رياح البعد عن معنى الإنسان عند الإنسان ، وهومانلمسه جليا عند بعض المدارس النقدية الحديثة التي تعتمد على فهم جمال العمل الإبداعي بغض النظر عن مضمونه عند الفلسفة المثالية وجماليات الشكليين .وقد اعتمد هذا البحث المنهج التكاملي في الوصول إلى نتائجه بالتركيز على الاستقراء والتحليل للوصول إلى أهدافه المتمثلة في إظهار مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في مجالي البلاغة والنقد .

التمهيد

المقاييس البلاغية والنقدية عند الجاهليين

لقد كان مجيء الإسلام حدثا عالميا أجرى تغييرات هائلة في النظرة إلى الحياة والكون والإنسان، بل شملت جذوة التغيير كل مظاهر المجتمع العربي القديم في جوانبها المتعددة في النظرة إلى الكون وعلاقة الإنسان بالموجودات الكونية الحية والجامدة وتعدى إلى نظرة الإنسان إلى ما وراء الطبيعة من العوالم العلوية . ويمكنني القول إن شمولية التغيير تلك التي أحدثها الإسلام تحمل في طياتها بذور الأصالة للنقد والبلاغة العربية في طورها الإسلامي ؛ إذ لا يعقل أن نجد التغيير الشامل في المفاهيم للكون والحياة ولا يكون لهذا التغير بصمات واضحة وجلية في جانب الأدب باعتباره انعكاسا حقيقيا للمجتمع الذي ينشأ فيه .

إن بذل الجهود في محاولة قراءة البدايات الحقيقية للنقد على أسس موضوعية ، مدعاة لبيان مقدار الأصالة فيه وقطعا للطرق على أولئك الذين يزعمون بأن النقد العربي منذ بداياته نقد تشوبه وتطغى عليه مستوردات من الأمم الأخرى كاليونانية والرومانية ، واستبعادا إلى حد ما للذاتية في النقد ، وقضاء على كل دعي في مجال النقد والبلاغة .

وحتى يتضح مقدار التغيير يجدر أن نلقي الضوء بعجالة غير مخلة على مزايا الإبداعات الأدبية في العصر الذي سبق نزول الرسالة لنجد قوة التعبير وسلامة العبارة وجودة السبك وجزالة الألفاظ بالإضافة إلى ضحالة التصورات وضيق في عطن المعاني وتفككها، وطغيان الصنعةعند بعضهم – كما هو الحال عند مدرسة أوس بن حجر في الشعر – وانطلاقها من عقال

التصنع عند آخرين .

أما فيما يميز النظرات البلاغية والنقدية ،فنجد أن سماتها العامة تتمثل في النظرة الجزئية للعمل الأدبي حيث يدورفي جانب الشعر على نقد البيت الواحد من الشعر أو جزء منه كنقدهم للنابغة بقولهم : أقويت أقويت [١] .

أو جملة منه كقولهم : استنوق الجمل[٢] والأحكام غير المعللة في كثير من الأحيان كإطلاق اسم البتارة على قصيدة حسان :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل [٣]

والمعللة أحيانا أخرى كقول النابغة لحسان أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك [٤] ، والاعتماد على الإحساس والذوق الفطري ، ناهيك عن التعميم في .إصدار الأحكام كقول قريش في بعض قصائد علقمة بن عبدة الفحل الميمية والبائية : هاتان سمطا الدهر [٥]

---

(١) البيت : زعم البوارح أن رحالتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود .

(٢) البيت منسوب للمسيب بن علس أو المتلمس وهو:

وقد اتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم .

(٣) عبد العزيز عتيق،تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ط ٤ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م،ص٢٦.

(٤) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١١. وذلك نقدا لأبيات حسان ابن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولـــدنا بني العنقـــــــاء وابني محـــرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

(٥) مطلعا القصيدتين هما :

وأقوال للنابغة في حق بعض الشعراء : إنك لشاعر ، أنت أشعر الناس ... [١] واستخدام عبارات موجزة معبرة قابلة للتوسع عند التحليل ، تستخدم التصورات ذات العلاقة بالبيئة الجاهلية عند الحكم : وخير ما يمثل ذلك ما أوردته كتب الأدب من قصة اجتماع مجموعة من شعراء تميم قبل الإسلام هم : الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطيب والمخبل السعدي ، وطلبهم من ربيعة بن حذار الأسدي الحكم في أيهم أشعر حيث قال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئا فينتفع منه ، وأما أنت ياعمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألا فيها البصر ، فكلما أعيد فيه النظر نقص البصر ، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم ، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر [٢] وربما تقدم النقد باستخدام المفاضلة بين شاعرين في موضوع واحد مع التركيز على جانب من جوانب النقد كرسم الصورة الفنية كما نجد ذلك عند أم جندب في حكمها على رسم صورة الخيل بين زوجها امرئ القيس في قصيدته البائية التي مطلعها :

خليلي مرا بي على أم جندب لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

(١) عبد العزيز عتيق ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ٣٢ .

(٢) إحسان عباس،تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ط ٤ ، دار الثقافة ، بيروت ١٤٠٤ ه – ١٩٨٣ م ، ص ١٣ .

حيث يقول :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر من وقع أهوج منعب

وعلقمة الفحل في بائيته التي مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب

حيث يقول :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فقد رصدت أم جندب درجة التغاير في رسم صورة الفرسين ؛ الفرس المجهد المتعب المجنون بسبب الضرب والزجر، وهي صورة توحي بعدم الأصالة في الموصوف ، والفرس المدرك للطريدة بسهولة ويسر وهو ثان من عنانه الموحية بأصالة الخيل العراب [١] والسمة الأكثر شيوعا في نقدهم تتمثل في التركيزعلى نقد المعاني بعبارات موجزة كما في نقدهم للغلو عند المهلهل وامرئ القيس وذلك في قول الأول :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وقول الثاني :

تنورتها من أذرعات وبيتها بيثرب أدنى دارها نظر عالي [٢]

وربما دخلت العصبية القبلية والموالاة طرفا في النقد حيث يظهر ذلك من خلال تفضيل عمرو بن الحارث الغساني حسان بن ثابت على النابغة

---

(١) عبد العزيز عتيق ، تاريخ النقد الأدبي ، ص ٢٢ .

(٢) السابق ، ص ٢٤ .

وعلقمة بن عبدة علما أن ما أنشداه أمامه من قصيد يعد أفضل مما أنشده حسان ، فقد انشد علقمة قصيدته التي أقرت قريش بأنها سمط الدهر والتي مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

وأنشد النابغة قصيدته :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

التي تعد من عيون الشعر الجاهلي في الاعتذار ومع ذلك يفضل الحارث قصيدة حسان :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل

ويسمها بالبتارة [1] مع أنها قد تكون ليست أكثر جودة مما سبق ، والأمر يعود إلى أن حسان قد قصر معظم شعره على ملوك آل جفنة من الغساسنة ، وفيهم يقول من نفس القصيدة :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

أما النابغة فكانت جل أشعاره في المناذرة أعداء الغساسنة التقليديين . فالتفضيل هنا يعود إلى التعصب لا إلى الجودة الشعرية .

وربما دخل في النقد بعض الاعتبارات العرفية وعادات الجاهلية مثل قول طرفة نقدا لبيت المسيب بن علس :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

---

(١) السابق ، ص ٢٦ .

استنوق الجمل ؛ لأن الصيعرية تعلق في عنق الناقة وليس الناجي (الجمل) [١] فهذا النوع من النقد دلالته عرفية .

وخلاصة القول: إن النقد في هذه المرحلة – كما يرى أحمد أمين – لم يكن مبنيا على قواعد فنية ، ولا على ذوق منظم ناضج ، إنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة [٢] وهو ما يقارب رأي عبد العزيزعتيق في قوله : " وإذا تذكرنا أن النقد الذي تمخضت عنه قرائح النقاد في هذا العصر إنما يمثل نشأة النقد العربي ومراحله ، فإنه يكون من التجني أن نتوقع منهم أن يحللوا ويعللوا وأن يخوضوا في قضايا النقد الأخرى [٣] . ويخلص محمد حسن عبد الله إلى القول بأن النقد الجاهلي " عملي تطبيقي غالبا ، يهتم بالجزئيات حين يرصد الأخطاء، ويعمم الأحكام حين يحكم بالتفوق أو الحسن ، وهو نقد ذوقي يعتمد على التجربة الخاصة أو الدراية دون أن يعمد إلى التحليل أو التعليل، وهو قليل من الناحية الكمية ، ومن الصعب أو الافتعال التحدث عن اتجاهات أوأسس عامة فيه ، فلم يكن الناقد المختص قد وجد بعد " [٤] ويرى إحسان عباس : أن النقدالجاهلي يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون لجوء للتعليل ، وتصوير ما يجول في النفس بصورة

---

(١) السابق ، ص ٢١ .

(٢) أحمد أمين ، النقد الأدبي ، ط ٣ ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٣ م ، ص ٣٠ .

(٣) عبد العزيز عتيق ، تاريخ النقد الأدبي ، ص ٣٨ .

(٤) محمد حسن عبد الله ، مقدمة في النقد الأدبي ، ط ١ ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٣٩٥ ه – ١٩٧٥ م ، ص ٢٦٣ .

أقرب إلى الشعر نفسه ، وذلك هو شان أكثر الأحكام التي نجدها منذ الجاهلية ... وإذا كان هذا النموذج (تحاكم مجموعة من شعراء تميم إلى ربيعة بن حذار الأسدي) من أرقاها فإن معظم النماذج الباقية إنما يتحدث عن شئون خارج الشعر نفسه أو جزئية فيه ، شئون متصلة بالعرف أو بالمعارف التي يتضمنها الشعر أو بلفظة معجبة هنالك أو بيت محكم المعنى والسبك .. [١] ونختم بما يراه شوقي ضيف من أن النقد الجاهلي كان ساذجا فطريا يعتمد على الإحساس والذوق البسيط ... وأن النقد العربي كان في جملته نقدا عملي يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلا فقد كان محوره غالبا البيت والعبارة ولم ينظروا في الأدب أو الشعر نظرة عامة ، فقد شغلتهم النظرة الجزئية بحيث يمكن أن نقول إن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص . ولا ننكر أنهم تركوا كثيرا من الأحكام العامة إلا أنها تجري على ألسنتهم في جمل مركزة وقلما حللوها [٢].

هذا فيما يتعلق بجانب الشعر ، أما في جانب الفنون الأدبية النثرية الجاهلية كالوصايا والمنافرات والرسائل وسجع الكهان والأمثال، فليس هناك ما يدل على دخولها تحت نظر المتعاطين للنقد ، بل أهملت إلى حد كبير إلا ما كان من فن الخطابة الذي يعد من أكثر الفنون الجاهلية أصالة بعد الشعر – وما أكثر ما قيل من الخطب لمناسبات متعددة سلما وحربا – فقد وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع لسن كما وصفهم باللوذعية والرمي بالكلام العضب

---

(١) إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص ١٣.

(٢) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٤٧ .

القاطع [١] ووصفوا خطابتهم ببرود العصب الموشاة وبالحلل والديباج والوشي وأشباه ذلك [٢] . كما عدوا قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب لخطبته التي ألقاها في سوق عكاظ نظرا لما تحمله من مضامين [٣] وفي البيان والتبيين ما يفهم أنهم كانوا يبالغون في حوك الكلام باستخدام التشدق والتقعر والتفيهق وتجهير الصوت والتفاخر بهدل الشفاة ورحب الغلاصم وخلخلة الألسنة بالكلام وتجويد الألفاظ وأن ذلك في أهل الوبر أكثر منه في أهل المدر [٤] كما تعددت عندهم أنواع الخطب من وعظية وسياسية وحربية ومحفلية وخطب الإملاك (الزواج) إلا أن الأحكام النقدية على هذه الخطب لم تتناول الجزئيات أو التحليل الموضوعي بقدر كونها تعميمات قد يدخلها المبالغة . وهذا الحديث لا يتعارض مع القول ببلوغ العرب في الجاهلية شأوا بعيدا في القدرة على إحسان القول والإتيان به بليغا مطابقا لمقتضيات الأحوال ، وأنهم أوتوا حظا عظيما من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام ، والقدرة والبصر على تمييز الكلام وبلاغة الإفهام حتى عدوا حجة على من بعدهم في اللغة والأدب وعد عجزهم عن تناول القرآن بالقدح البياني دليلا لمن بعدهم على عدم القدرة على الإتيان بمثله . ولا أدل على مكانتهم المرموقة العريقة في فن القول من وصف القرآن لهم بالقدرة على المخاصمة والمبالغة في ذلك

---

(١) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٨ .

(٢) السابق ، ص ٩ .

(٣) الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ت : عبد السلام هارون ، ط ٣ مؤسسة الخانجي- القاهرة ، الكتاب الثاني ،ج ١، ص ٥٢ .

(٤) السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

بقوله تعالى : (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) [١] وقوله تعالى : (وإن يقولوا تسمع لقولهم) [٢] .

أما من حيث المضامين ، فلا شيء يقف عائقا أمامهم في حدود تصوراتهم واعتقاداتهم وإدراكاتهم للحياة وما بعد الحياة ؛ فقد تحدثوا عن الحروب والظلم والصلح والآلهة والمعتقدات الفاسدة والأصنام والمتع الدنيوية ووصف الطبيعة والمرأة والخمر ومجالسها والقيان واللهو، فقد رصدت لنا كتب الأدب والمصادر الشيء الكثير، وحسبك من ذلك قول امرئ القيس :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوما بدارة جلجل

وقوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل [٣]

وقول أوس بن حجر مشيرا إلى زواج الرجل من أمه أو خالته أو امرأة أبيه أو ابنه وهي من الآثار الفارسية عندهم :

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لأبيه ضيزن سلف [٤]

بل ربما استخدموا الألفاظ الفارسية في بعض أشعارهم كما نرى في

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٥٨ .

(٢) سورة المنافقون ، آية : ٤ .

(٣) أبو عبد الله،الحسين بن أحمد الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، دار صادر – بيروت ،٢٠٠٢ م ، ص ١٠.

(٤) نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ط ٢ ، مكتبة الأقصى – عمان ، ١٩٨٢ م ، ص ٢٨.

القصيدة المنسوبة لامرئ القيس :

لمن طلل بين الجدية والجبل محل قديم العهد طالت به الطلل

ومنها :

فقـــالت أنا رومية عجمية فقلت لها ورخيز بياخوش من قزل

وقد كان لعبي كل دست بقبلـــة أقبل ثغرا كالهـــلال إذا أهـــل

فجملة (ورخيز بياقوش من قزل) من لغة رومية معناها : أنا رومية عجمية كأن الشاعر ردد كلامها في الشطر الأول ، وكلمة (دست) معناها عشرة بالفارسية [١] ومن حديثهم عن التطير والطيرة أبيات الحارث بن حلزة :

يأيها المزمع ثم انثنى لا يثنك الحادي ولا الشاحج

ولا قعيد أعضب قرنه هاج لـه مـن مربع هائج

بينا الفتى يسعى ويسعى له تاح له من أمره خالج

يترك ما رقح من عيشه يعيث فيه همج هامج [٢] .

(الحادي : مااستقبلك من تجاهك من الطير والوحش .

الشاحج : الغراب المسن الذي غلظ صوته .

---

(١) القصيدة منسوبة إلى امرئ القيس في بعض الدواوين ، وهناك من يرى أنها من أشعار العصر العباسي نحلت على امرئ القيس .

(٢) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ط ٧ ، دار المعارف – مصر ، ١٩٨٨ م ، ص ٣٢٨ .

الأعضب : المكسور القرن) .

أما المضامين المتعلقة بفنونهم النثرية ، فتعتمد على نوعية الفن النثري ؛ ففي المنافرات النثرية نجد التركيز على المكانة والشرف والحسب والنسب والكرم ، وما يتعلق برفعة الإنسان الجاهلي من جهة ، وما يتعلق بوضاعة قبيله وغريمه من جهة أخرى كالوصف بالجبن والانحطاط والبخل وعدم النجدة وقلة الوفاء والفرار من المعارك وغيرها ، [١] وهو ما نهى عنه النبي صلى الله عليه بقوله : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

وفي الوصايا : نجد المضامين تتعلق بإسالة عصارة التجارب المفيدة في الحياة ونتائج التجارب لتصب في وعي الموصى ، مع صدق في العبارة وبعد عن التنميق الشكلي والزخرفة اللفظية [٢] .

وقد استمرت على وضعها في صدر الإسلام ، وخير ما يمثلها من القرآن الكريم وصية لقمان لابنه من خلال قوله تعالى من سورة لقمان في الآية الثالثة عشرة: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ...) ، وكذلك وصاياه صلى الله عليه وسلم للأمة خاصة في حجة الوداع .

أما الخطب فمضامينها تتناسب مع أنواعها إن كانت حربية أو محفلية أو خطب زواج ومصاهرة أو صلح أو وفادة على العظماء وغير ذلك . أما

---

(١) انظر : منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط ٦ ، ج ١٥ ، ص ١٥.

(٢) انظر : وصية أعرابية لولدها ، محمد صالح الشنطي ، في الأدب العربي القديم ، ط ٤ ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – حائل ، ١٤٢٦ ه –٢٠٠٥ م ، ص ٢٤٢ .

الأمثال فمضامينها متعددة متفاوتة حسب مواردها الأصلية وهي تشكل في الحس العربي عصارة العصارة للتجارب الحياتية اليقينية التي لا يدخلها الشك في جوانب المطابقة للواقع المعاش والمصاغة بقوالب لفظية محكمة السبك دقيقة الإصابة ، بعيدة عن التصنع في كثير من الأحيان لجريانها في لغة التخاطب اليومية العادية التي تجري عفو الخاطر دون تعمل (بتشديد الميم) وقد خالف الكثير منها القواعد الصرفية والنحوية – كقولهم : مكره أخاك لا بطل ، وأعط القوس باريها (بسكون الياء) – بسبب هذه العفوية ، ومصنوعة بدقة وإتقان أحيانا أخرى وسبب هذا الورد بنوعيه كما يقول شوقي ضيف : " إن الأصل في الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة ؛ لأنها من لغة الشعب ، وقلما نمق الشعب لغته ، غير أنه كثيرا ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية في الأمة : طبقة الشعراء والخطباء ، فتحقق لها هذه الطبقة ضروبا من عنايتها العامة بفنها ، وهذا هو مصدر الاختلاط في الحكم على الأمثال ، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة ،نجد أخرى تفنن أصحابها في صوغها وإخراجها في أسلوب بليغ على شاكلة تلك الأمثال : أنقى من مرآة الغريبة ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ... " [1] وبالرجوع إلى مجمع الأمثال للميداني (ت٥٨١٥) أو جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت ٥٣٩٥) نجد مصداقية ذلك .

أما سجع الكهان فمضامينه غالبا ما تتعلق بتكهنات عن الأمور الغيبية والنقل عن الآلهة المزعومة مما يوسوس به الرئي (تابع الكاهن من الجن) من الجن في أذن وقلب الكاهن في أمر الحرب والمنافرات واكتشاف

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط ٤ ، دار المعارف – مصر ١٩٦٥ م ، ص ٢٥ .

السرقات وحالات القتل وتعبير الرؤى وحالات السفر والنذور والأحلاف والغزو وغيرها .

بهذا القدر الموجز من الحديث عن النقد الجاهلي يمكننا تصور الوضع العام له حتى يتميز لنا مقدار الزيادة عليه إذا ما بدأنا الحديث عن النقد والبلاغة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

النقد والبلاغة عند الرسول صلى الله عليه وسلم :

عند تناول هذه القضية لابد من تركيز بؤرة النظر على جانبين ، الأول منهما يعتمد على أحاديثه صلى الله عليه وسلم من حيث تفوقها في جانب فن القول على مقولات غيره حتى عصرنا الحاضر ، حيث أجمع الدارسون لحديثه قديما وحديثا على عده في الدرجة الثانية بعد القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، والدرجة الأولى فيما يتعلق بإنتاج البشر ؛فلم يستطع أحد ممن أعطوا فن القول أن يبلغ شأوه ومكانته،والمتتبع لأحاديثه – التي وصل إلينا منها مئتا ألف حديث ونيف جمعها السيوطي في كتابه جمع الجوامع – يستسهل إمكانية استخراج ما توصل إليه النقاد والبلاغيون من مسائل واصطلاحات تتعلق بالموضوعات ذات الشأن والحصول على نماذج وأمثلة من أعلى الدرجات البلاغية لاستخدامها نماذج اقتداء واتباع لمن يرغب الولوج في عالمي البلاغة والنقد. والأقوال التي تصف بلاغته وفصاحته كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما قاله الجاحظ في وصف كلامه صلى الله عليه وسلم : " ... وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد

(وما أنا من المتكلفين) [١] ، فكيف وقد عاب التشدق ، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط ، في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي ؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول، وجمع له مابين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع الاستغناء عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب فلجا إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى من كلامه " [٢] . ويقول القاضي عياض : " وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله عليه وسلم بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع ، وبراعة مترع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول، وصحة معنى ، وقلة تكلف . " [٣] ويرى

---

(١) سورة ص ، آية : ٨٦ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٨ .

(٣) القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي ، ت ٥٤٤ ه ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وبحاشيته : مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفا ، لأحمد ابن محمد الشمني ، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ، ١٤٠٩ ه – ١٩٨٨ م ، ج ١ ، ص ٧٠ .

الرافعي أن البيان النبوي يتمتع بمجموعة من الخصائص تميزه عن غيره فمن جهة الألفاظ نجده مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التراكيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات ، واضح الصلة بين اللفظ والمعنى ؛ فلا حرفا مضطربا ولا لفظة مستدعاة لمعنى ومستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها . ومن جهة البيان تجده حسن المغزى ، بين الجملة ، واضح التفصيل ، ظاهر الحدود، جيد الوصف ، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة غريب الحجة ناصع البيان ، لا ترى فيه إحالة ولا استكراه ولا ترى اضطرابا ولا خطلا ولا استعانة عن عجز ، ولا توسعا من ضيق ، ولا ضعفا في وجه من الوجوه ، مع سمو المعنى وفصل الخطاب [١] . هذان الوصفان القديم والحديث يبينان لنا مقدار قدرته صل على حوك الكلام وإجادته بل أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقد وصف القران كلامه صلى الله عليه وسلم بأنه وحي قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) [٢] المحلل لكلامه صلى الله عليه وسلم يجد مصداقية ذلك ، فقد أوتي جوامع الكلم بأسلوب سهل ممتنع ، وقد اهتمت دراسات كثيرة في استنباط دلائل الإعجاز في حديثه الشريف وتحليل أقواله صلى الله عليه وسلم وتفتيق ما تحمله من فنون القول المتعددة بأعلى صورة تعبيرية – تراعي من خلالها طبيعة التكوين الشخصي للمخاطب وحالاته النفسية وتلائم بينها وبين أساليب الخطاب في بعد عن التكلف والإغراب واستخدام الحوشي من الألفاظ بالإضافة إلى التجافي عن التعقيد والاستكراه وقلق الألفاظ واستبداله بالسلاسة المتسقة مع طبيعة البيان المحقق

---

(١) بتصرف : د – مصطفى عبد العليم ، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، المنتدى الإسلامي ، انترنت .

(٢) سورة النجم ، آية : ٤ .

لغايات المقام ، إنها الصور التعبيرية التي لا تحفل بالسجع المتكلف ، ولا تلوي أعناق الألفاظ لقسرها على أداء المعاني ، ناهيك عن استخدام الإيجاز غير المخل في مواطن الإيجاز والتكثيف، والإطناب حيث يتطلب المقام ذلك ، مع التنويع في اساليب حوك الكلام بين الخبر وتعدد أضرابه ، والإنشاء وتفاوت أنواعه، وغيرها من الوان التعبير الخالي من الزخرفة اللفظية لغايات الزخرفة المفعم بالصور الحقيقية والخيالية والتمثيل ، – منها على سبيل التمثيل لا الحصر : كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ،حيث بين من خلاله البون الشاسع بين لغة النبي وفصاحتها ولغة غيره من العرب ، ووضح الكثير من الخصائص الفنية للقول وكتاب الحديث النبوي الشريف من الوجه البلاغية ، وقد عمد مؤلفه الدكتور كمال عز الدين إلى رصد القيم الجمالية والأسس الفنية والآثار المعنوية في الحديث . وكتاب القصص في الحديث النبوي للدكتور محمد حسن الزير حيث ركز على المعايير الفنية في القصة النبوية بالإضافة إلى أنواع القصة وأهدافها . وكتاب مدخل إلى البلاغة النبوية للدكتور حلمي محمد القاعود ، حيث بين في كتابه أسباب تفوق الحديث وأسلوبه وخصائصه مع تطبيقات واسعة في أساليبه المختلفة ، وكتاب دراسات في البيان النبوي للدكتور محمد رفعت أحمد ويشمل الكتاب مناقشة موضوعات علم البيان في الحديث النبوي الشريف الواردة في مشكاة المصابيح ، ومن الكتب أيضا كتاب من كنوز السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) لـــلمؤلف محمد علي الصابوني ، حيث عرض المؤلف بالتحليل الأدبي واللغوي والبلاغي لأربعة وثلاثين حديثا مستخرجا من خلالها جوامع الكلم عند الرسول صلى الله عليه وسلم وأنواع البيان ، ومن الدراسات العربية القديمة التي تصب في الموضوع نفسه كتاب المجازات النبوية للشريف الرضي حيث قام بالشرح والتحليل لمجموعة كبيرة

لأحاديث الرسول بلغت ثلاثمائة وستين حديثا أماط من خلالها اللثام عن أسرار البلاغة النبوية وصنوف الأساليب النبوية الرفيعة ، وكتاب الفائق في غريب الحديث للإمام جار الله الزمخشري ، حيث أشار إلى أصناف البديع وأنواع البيان ، وكتاب عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للإمام العيني ، وغيرها من الكتب . والمطلع على هذه الكتب وتحليلاتها يتبين الخصائص والسمات الأسلوبية لأحاديثه صلى الله عليه وسلم فقد شمل جميع الفنون البلاغية المعروفة عند أهل المعاني والبلاغة في علومها الثلاثة البيان والمعاني والبديع ، ففيه التشبيه والمجاز والكناية والتجريد كما اشتمل على أنواع ألأساليب الإنشائية والخبرية وحفل بأنواع البديعيات من طباق ومقابلة وجناس وسجع وصحة تقسيم ومبالغة واحتراس وتتبيع وتوشيع وتذييل وتتميم إلخ ... .

أما في جانب التنظير ووضع الأسس للمعايير النقدية والبلاغية فقد كان له صلى الله عليه وسلم القدح المعلى ، والنصيب الأكبر ، وأقواله في هذا الجانب ناتجة عن قدرة خبير في صوغ الكلام ومعرفة مداخله ومخارجه لا مجرد تنظير من فم من لا يحسنه ، ومن المعلوم بداهة أن القواعد البلاغية والنقدية تكون أدق ما تكون إذا قررت من قبل صانع للكلام الجيد متبحر فيه قد أحاط باللغة – ولا يحيط بها إلا نبي – فالكاتب الناقد أكثر إجادة في معرفة ما يحسن في الكلام من الناقد الذي لا يجيد الكتابة. ومن هنا يمكنني القول أن معاييره النقدية والبلاغية صلى الله عليه وسلم ليست مجرد تنظيرات لا يمثلها الواقع بل هي من صميم الواقع الأدبي ، والدراسات في هذا

المجال غير متوفرة سوى شذرات هنا وهناك يصعب التقاطها من بطون الكتب، وهأنذا أحاول من خلال هذه الدراسة أن أضع النقاط على الحروف من خلال استخراج ما يمكن استخراجه من القواعد والمعايير المتعلقة بالبلاغة والنقد في أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، مع الاقتصار على تلك المعايير والمقاييس المتعلقة بالكلام المنثور لا المنظوم .

اختيار الكلمة المعبرة بكل أبعادها الدلالية والصرفية والصوتية :

أول ما يطالعنا من اهتماماته صلى الله عليه وسلم بهذا الشأن حديثه عن ضرورة اختيار الكلمة المعبرة ، واختيار الكلمة ومواصفاتها أول ما يقع عليه نظر النقاد والبلاغيين ؛ فقد درج البلاغيون عند الحديث عن فصاحة اللفظ أن ينظروا إليه من حيثيات مختلفة، في جانب النطق وانسجام الحروف ، وجانب السمع وخفة الكلمة ، والاستعمال من حيث الوحشية والندرة ، أو الابتذال وموافقة القواعد الصرفية ، بالإضافة إلى المعنى ، فعابوا الهعخع ومستشزرات والسجنجل والأجلل والجرشا [١] ، وما ذاك إلا تفسيرا لما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعنى بتخير الألفاظ ، وقد أورد الجاحظ قوله عليه الصلاة والسلام : "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي " [٢] قال أبو عبيد : " وجميع أهل اللغة يرون بأن (

---

(١) الخطيب القزويني ، جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٣٩ ه ، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح ، ت وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط ٣ ، دار الجيل – بيروت ، ١٤١٢ ه –١٩٩٣ م ، ج ١ ، ص ٢١ . وانظر : ابن سنان الخفاجي عبد الله ابن محمد بن سعيد ، ت : ٤٦٦ ه ، سر الفصاحة ، ط ١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٠٢ ه – ١٩٨٢م، ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب : لا يقل : خبثت نفسي . والحديث من رواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

لقست وخبثت) بمعنى واحد ، وإنما كره النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الخبث لبشاعة الاسم وتعليمهم الأدب في الألفاظ ، واستعمال حسنها وهجران خبيثها " [١] . وهذا الطلب في استخدام الجميل من الألفاظ يدخل في عموم قوله تعالى : (قل لعبادي يقول التي هي أحسن) [٢] . وقد تمثل السلف الصالح هذه المقولة النبوية ، فقد ورد عن الشافعي أنه قال لأحد تلاميذه : "يا أبا إبراهيم ، اكس ألفاظك أحسنها ، لا تقل : فلان كذاب . قل : فلان ليس بشيء [٣] .

في نهيه عما يخالف الفصاحة والبلاغة من التشدق والتخلل في الكلام والتفيقه في الحديث والتكلف والتنطع والثرثرة والإكثار من الكلام في غير مواضعه :

أما الثرثرة : فهي كثرة الكلام في تردد وتخليط .

أما التشدق : فهو من التكلف ومعناه: لي الشّدق (جانب الفم) بالكلام تفاصحا،أو التكلم بملء الفم للتفاصح ، أو التكلم دون احتراز.

" لا يقل أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي " . دار الريان للتراث – بيروت ، ١٤٠٧ ه –١٩٨٦ م . وانظر : شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١٣ –١٤.

(١) السابق ، حديث رقم : ٥٨٢٥ ، إسلام ويب نت .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥٣ .

(٣) السخاوي ، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن فتح المغيث بشرح ألفية الحديث ، ت : عبد الكريم الخضير ومحمد الفهيد ، ط ١ ، دار المنهاج – جدة ، ج ١ ، ص ٣٧١ .

وأما التفيهق في الكلام فمعناه التوسع في الكلام والتنطع فيه قال عليه الصلاة والسلام : " إن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون " [١] .

وأما التخلل في الكلام : فهو إدارة اللسان حول الأسنان مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه يصنع كما تصنع البقرة عند أكل الكلأ حيث تلفه بلسانها كما جاء في الحديث :" عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه : " إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه " [٢].

وأما التنطع : فهو إخراج الكلام من النطع (غار الفم) حيث موقع اللسان من الحنك ، والمراد المبالغة والزيادة فيه والتكلف والتعمق والتفاصح قال – عليه الصلاة والسلام – : (هلك المتنطعون) أو (هلك المكثرون) [٣].

وأما التكلف : فهو تجشم الكلام على مشقة ، أو الحديث فيما المتكلم جاهل به من المعارف ، أو الزيادة في الحديث فوق ما يحتمل ولذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : (أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف)[٤].

والناظر في الحقل الدلالي للألفاظ السابقة يجد أنها تدور في فلك

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي ، كتاب السنن ، باب : ما جاء في الفصاحة والبيان .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، كتاب العلم ، باب : هلك المتنطعون .

(٤) موسوعة الحديث ، حديث رقم : ٢٤٥ ، شبكة : إسلام ويب .

الابتعاد عما يخرج المتكلم عن دائرة البلاغة ، وانصراف المتلقي عن الاستماع وبالتالي فشل الرسالة المراد إيصالها إلى المتلقي ؛ فالثرثرة تؤدي إلى التخليط والوقوع في الخطأ ؛لأن من كثر كلامه كثر خطؤه . والتفيقه والتنطع والتشدق والتخلل تتضمن – بالإضافة إلى الرسالة التي يحملها الكلام – رسم هيئة للخطيب (المرسل) تستدعي امتعاض المرسل إليه ؛ لما تحمله الهيئة من معنى الكبر والتعالي ، وبالتالي تفقد الرسالة أهم موجبات إيصالها بالشكل السليم للمتلقي ؛لانشغاله في عوامل جانبية كالتأمل والتفكر في هيئة المرسل وتعاظمه ، وهذه الحالة أكثر موجبات إخفاق البليغ العربي تحديدا .

والمعاني السابقة التي على البليغ أن يحترز منها لتكتمل جوانب بلاغته، كثر في أحاديثه صلى الله عليه وسلم ما يؤكد خلافها لقوله : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "[١] . وقوله لمعاذ بن جبل : " ... ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ " [٢]. وفي حديث : " ... ويبغض لكم ثلاثة : القيل والقال..." [٣] . وفي حديث عمار بن ياسر : " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة وقصر الخطب " [٤] .

---

(١) شرح الأربعين نووية ، رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، حديث رقم : ٢٦١٦ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم : ٥٩٧٥ عن المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – .

(٤) أخرجه مسلم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه .

والمسائل السابقة أكثر ما يمكن حملها على الجانب الشفاهي من الأجناس الأدبية كالخطب والمناظرات والمحاضرات والندوات وما كان طريقه الخطاب المباشر ، وقد استلهم هذه المعاني الجاحظ في كتابه البيان والتبيين فقال في هذا الفحوى :

ثم اعلم – أبقاك الله – أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عي يتكلف الخطابة ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة. ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبيانا يمازجه التزيد . إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ومن تشادق الأعرابي القح . وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ وفي التحبير والارتجال أنه البحر الذي لا يترح والغمر الذي لا يسبر أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه في مسلاخ التام الموفر والجامع المحكك وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إياي والتشادق) . وقال : أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون) وقال : من بدا جفا ، وعاب الفدادين والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب الغلاصم وهدل الشفاة ...) [١] . وقد استوحى النقاد القدامى هذه المعاني ونشروا فحوى كلامه صلى الله عليه وسلم مستخدمين عباراتهم الخاصة وسبكهم الخاص مع تفامت في إصابة معنى المصطلح أو مجانبة الإصابة ، فهذا ابن قتيبة يصف المتكلف من الشعراء بقوله :

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، الكتاب الثاني ، ج ١ ، ص ١٣ .

" فالمتكلف هو الذي قوم قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر " [١] . ويورد قول سويد بن كراع بهذه المناسبة :

أبيت بأبواب القوافي كأنمـــــا أصادي بها سربا من الوحش نزعا

أكالئها حتى أعـــرس بعدما يكون ســـحيرا أو بعيد فأهجعـــا

إذا خفـــت أن تروى علي رددتها وراء التراقي خشية أن تطلعـــا

وجشمني خوف ابن عفان ردها فثقفتهـــا حولا جريدا ومربعـــا

وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أر إلا أن أطيع وأسمعـــا [٢]

على أن هناك من لا يرتضي فهم ابن قتيبة للتكلف ويدحضه كما نرى عند عز الدين اسماعيل بتعليقه على معنى التكلف عند ابن قتيبة حيث يقول : " والمفهوم السائد للأدب أنه صنعة ، وحين نقول إنه صنعة فإننا نحذر من التباس كلمة الصنعة بالتكلف فليست الصنعة هي ما عرف بالتكلف، فنحن نقرأ أحيانا عبارة (تكلف الصنعة) مما يشعر بالتمييز بينهما . والصنعة قديمة في الشعر العربي عرفها الجاهليون وحفلوا بها ، وكانت منهم أول مدرسة شعرية تهتم بالصنعة وبذل الجهد في العملية الإبداعية وقد يخلط ابن قتيبة بين معنى الصنعة والتكلف " [٣] . وما قاله ابن قتيبة لا يتناسب مع المعاني التي

---

(١) ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم ، ت : ٢٧٦ ه ، الشعر والشعراء ت : أحمد محمد شاكر ، ط دار المعارف – القاهرة ، ١٩٦٧ م ص ١٧ .

(٢) ابن قتيبة الدينوري عبد الله بن مسلم ، ت : ٢٧٦ ه ، الشعر والشعراء ت : أحمد محمد شاكر ، ط دار المعارف – القاهرة ،١٩٦٧م ، ص ١٧.

(٣) السابق ، ص ١٢٥ .

اثيرت حول التكلف المفهوم من الحديث.

ويصف الآمدي الشعر الحسن بمضادات التكلف والتقعر والتشدق والإغراب واستخدام الحوشي من الألفاظ بقوله : " وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله...فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف " [١] . وبهذا المعنى يقول الجاحظ : " ... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة " [٢] . ومما لا شك فيه أن ما ينسحب على الشعر في هذه القضايا أيضا ينسحب على النثر والأعمال الأدبية بالمقدار نفسه .

في جانب التراكيب والجمل :

يطالعنا أول ما يطالعنا في هذا الجانب إبداعاته صلى الله عليه وسلم للكثير من التراكيب التي لم تسمع من قبل، وقد أورد الجاحظ مجموعة منها بقوله : " وسنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يسبقه إليه عربي ، ولا شاركه فيه أعجمي ، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار

---

(١) الآمدي ، الموازنة ، ت : محمود توفيق ، ط ١ ، ص ٢١٩. وانظر : عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ١٢٦.

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، السندوبي ، القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ج ١ ، ص ٩٧ – ٩٨ . وانظر : عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ١٢٦.

مستعملا ومثلا سائرا " [١] فمن ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم " يا خيل الله اركبي ، وقوله :مات حتف أنفه ، وقوله : لا تنتطح فيه عنزان ، وقوله : الآن حمي الوطيس ، – وقد عرف العرب هذا التركيب بمعنى اشتداد النار في الفرن لا غير ونجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخدمه بمعنى جديد وهو اشتداد المعركة – ، ومثلها كل الصيد في جوف الفرا – قالها لأبي سفيان – وهدنة على دخن ، وجماعة على إقذاء ، ولا يلسع المؤمن من جحر مرتين " [٢] . وهذه الإبداعات تثري اللغة وتفسح المجال أمام المبدعين لينهلوا منها ويستخدموها في إبداعاتهم كما تحثهم على الاقتداء ومحاولة إثراء اللغة بإبداعات جديدة ؛ فاللغة كالكائن الحي يحتاج إلى التطوير والتحديث وفق القواعد العامة والأصول الثابتة ، وما أشبهها ساعتئذ بالشجرة المتجددة الاوراق والثمار ذات الأصل الثابت وفي القرآن : (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) [٣] . وقد شاع استخدام تراكيبه صلى الله عليه وسلم على ألسنة الخطباء من ذلك قول الحارث بن حدان حين أمر بالكلام عن مقتل يزيد بن المهلب قال : " أيها الناس اتقوا الفتنة ؛ فإنها تقبل بشبهة وتدبر ببيان ، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين " وقول ابن الأشعث : " قد علمنا إن كنا نعلم، وفهمنا إن كنا نفهم أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين " .

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ٢ ، ج ٢ ، ص ١٥.

(٢) السابق ، ص ١٥ – ١٦ .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٢٤ .

الإشارة إلى أنواع ودرجات البيان : في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان لسحرا " وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله : " إن من البيان لسحرا أو إن بعض البيان لسحرا " [١] .

جاء في لسان العرب في باب الراء فصل السين : " وكل ما لطف مأخذه ودق ، فهو سحر " [٢] . عند تحليل هذه العبارة النبوية نجد أنها تشير إلى تنوع البيان واختلاف درجاته وأن أعلى أنواعه ذلك البيان الذي يأسرك ويأخذ بلبك ويجعلك على قناعة من مراد صاحبه فهو يأسرك بكلامه إلى درجة قد يقلب فيها الحقائق ويجعلك مقتنعا بما ذهب إليه، وهو بهذا العمل أشبه ما يكون بالساحر الموهم بالشيء أو الذي يوهمك ويظهر لك الشيء على غير حقيقته بسبب روعة بيانه ودقة ولطف مداخله ومعانيه الدالة على بلاغة صاحبه وقدراته على التلاعب بالألفاظ . وقد يكون المعنى التوهيم والمخادعة وتزوير الحقائق وجعل العيون تتخيل الشيء على غير حقيقته ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى : (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) [٣] . ويؤيد ذلك ما ورد عن الأزهري في اللسان أن أصل السحر : صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره [٤] ، وقد يكون التفسير الأول هو الأكثر مناسبة للواقعة التي قيلت بها

---

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ط مصطفى البابي الحلبي ، ج ١٢ ، ص ٣٤٩.

(٢) ابن منظور المصري ، ت : ٧١١ ه ، لسان العرب ، مادة : سحر ، دار صادر – بيروت ، ١٩٩٥ م ج ٤ ، ص ٣٤٨ . وانظر : الراغب الأصفهاني ، مفردات غريب القرآن ، ص ٢٢٦ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١١٦ .

(٤) ابن منظور المصري ت : ٧١١ ه ، لسان العرب ، مادة : سحر ، دار صادر – بيروت ، ١٩٩٥ م .

هذه الجملة (إن من البيان لسحرا) ؛ فقد أورد الجاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر وهما من سادات بني تميم فقال : (مانع لحوزته مطاع في أدنيه " فقال الزبرقان : " أما أنه قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي " فقال عمرو : أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر زمر المروءة ، لئيم الحال ، حديث الغنى " فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال: " يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " إن من البيان لسحرا " [١] . وقد فسر أبو عبيد المعنى بقوله : " كأن المعنى – والله أعلم – أنه يبلغ من ثنائه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ،ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه قد سحر السامعين بذلك[٢].فالسحر في البيان يعادل الروعة والجاذبية وقوة التأثير ومصادرة القلوب والأحاسيس والانفعالات .

النهي عن السجع : ورد عنه صلى الله عليه وسلم عبارة : (أسجع كسجع الجاهلية) وفي رواية (أسجع كسجع الكهان)

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، ط ١ ، دار الفرقان – عمان ، ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣م ، ص ٨٥ .

و(أسجاعة كسجاعة الجاهلية)[١] و(إنما هذا من إخوان الكهان)[٢] وغيرها من العبارات تدور في نفس الفلك مما ورد في كتب الحديث النبوي الشريف وشروحاته . ومناسبتها أن رجلا قال للنبي عليه الصلاة والسلام : " كيف ندي من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل، أليس ذلك دمه يطل "[٣] . وذلك في معرض الدفع لإبطال حكم النبي صلى الله عليه وسلم في امرأة حامل ضربت بعمود فسطاط من قبل امرأة أخرى، فقتلت وأسقط جنينها فجعل النبي دية المقتولة على عصبة القاتلة ، وغرة (أمة أو عبد) لما في بطنها . وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : "... فقال رجل من عصبة القاتلة : أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل ، فمثل ذلك يطل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسجع كسجع الأعراب "[٤] .

لا بد – قبل الخوض في المعايير الفنية المتعلقة بالسجع – من الإشارة إلى أن النثر العربي الجاهلي قد عرف السجع وتعامل به ، والناظر إلى ما ورد عنهم من فنون نثرية يجد هذه الظاهرة بوضوح ، وهم يعدون السجع بالمنثور

---

(١) رواية الباقلاني في كتابه : إعجاز القرآن . انظر : عبد الرؤوف مخلوف ، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، دراسة تحليلية نقدية ، دار مكتبة الحياة – بيروت ، ١٩٧٨ م ، ص ٢١١ .

(٢) رواية الإمام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه .

(٣) عبد الرؤوف مخلوف ، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، ص ٢١١ .

(٤) النسائي ، السنن الصغرى ، كتاب البيوع ، حديث رقم : ٤٧٦٦ .

مقابلا للوزن والقوافي في الشعر ، ولعل استعمال السجع في منثورهم من باب تخفيف الوطأة في تجشم حفظ المعاني ، وجعلها أكثر سلاسة ؛ لما هو مركوز في الطباع أن الكلام ذي الصبغة الموسيقية أسهل حفظا من غيره ، ويورد الجاحظ جواب عبد الصمد بن الفضل الرقاشي عندما سئل : " لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ؛ فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره " [1] ومن الأمثلة على خطبهم المستخدم فيها السجع ما روي عن النبي قوله : " كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الايادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت ، إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا، نجوم تمور ، وبحار تغور ، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ يحلف قس يمينا غير كاذبة إن لله دينا هو خير من الدين الذي أنتم

---

(١) الجاحظ،البيان والتبيين ، كتاب ١ ، ج ١ ، ص ٢٨٧.

عليه .. [١] .

وقد اختلفت الآراء حول تفسير موقفه صلى الله عليه وسلم من السجع هل هو مذموم أم مقبول والذي أرجحه ما ذهب إليه كثير من المحققين من أن المنهي عنه والمذموم، هو السجع المتكلف في معرض مدافعة الحق ، وأما ما يقع عفوا بلا تكلف في الأمور المباحة فجائز ، والمحمود منه : ما جاء عفوا في حق ، ودونه : ما جاء متكلفا في حق، والمذموم منه : ما يقع متكلفا في باطل ، ودونه: ما يقع عفوا في باطل [٢] . وهذا يعني أن المنظور إليه في السجع من زاويتين : الشكل ومقدار الإصابة في مناسبة المعنى للنص باعتبار الواقع. ومن هذه المقولة النبوية عن السجع تبارت أقلام النقاد والبلاغيين وغيرهم من أهل الفكر والشريعة في توظيف هذا المصطلح والتوسع في مسائله من حيث القبول والرفض والتخصيص والتقييد والتأويل والحمل على الظاهر والتغيير والاستبدال بمصطلح الفاصلة ، إلى أن عد بابا من أبواب علم البديع ، فوضعت له مجموعة من المعاني اللغوية والاصطلاحية والأقسام فقالوا : سجع يسجع سجعا : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا ، والسجع : الكلام المقفى ، وسجع الرجل : إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من

---

(١) ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي ، البداية والنهاية ، ت : علي شيري ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي – ١٤٠٨ ه – ١٩٩٨ م ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، ط ١٤ ، دار الريان ، ١٩٨٦ م ، كتاب الطب ، باب الكهانة .

غير وزن [١] . والسجع : تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد ، وهو على ثلاثة أضرب: مطرف ومتوازي وترصيع ... [٢] وميزوا بينه وبين الفواصل ، فعدوا الفواصل بلاغة والسجع عيا . وقد ورد السجع في كلامه صلى الله عليه وسلم بكثرة مما يؤذن باستخدامه ، وأن المنهي عنه منه نوع خاص مقيد بسجع الكهان ، ومما ورد من أحاديثه المسجوعة : " اللهم إني أدرأ بك في نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم " وقوله : " اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع " [٣] .

حثه صلى الله عليه وسلم على الإيجاز : ورد عنه صلى الله عليه وسلم أقوال تشير إلى اهتمامه بقضية الإيجاز ، وأنه من البلاغة ، فقد جاء في الخبر أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطَول ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : كم دون لسانك من حجاب ؟ قال: شفتاي وأسناني . قال: فإن الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام (الانصباب فيه بشدة) فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته " . وفي رواية عن عمرو بن دينار :" أ ما كان في هذا ما يرد من كلامك ، إن من البيان لسحرا ". وفي

---

(١) أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ط ٢ ، مكتبة لبنان – ١٩٩٦ م ، ص ٣١١ .

(٢) الخطيب القزويني ، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح ، ج ٢ ، ص١٠٦.

(٣) الحديث من رواية البخاري في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، حديث رقم : ٦٧٨٢ .

الحديث قال أبو وائل : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلت : يا أبا اليقظان ، لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست،فقال : إني سمعت رسول الله يقول : " إن طول صلاة الرجل ، وقصر خطبته، مئنة من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطب ، وإن من البيان سحرا "[١] .

كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم مجموعة من الأحاديث التي تطلب اختصار الكلام على ما يفيد ، وإلا فالصمت ، منها : حديث أبي هريرة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " [٢] . وحديث : " رحم الله امرأ قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم " [٣] . وقال ابن الأعرابي ... : " تكلم رجل عند النبي عليه السلام فخطل في كلامه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما أعطي العبد شرا من طلاقة اللسان " [٤] . وقد تمثل الصحابة رضوان الله عليهم معاني ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب ، فكانوا يقتصرون في كلامهم على ما هو مفيد بأسلوب بليغ ، ويحذرون من الإطالة والتطويل ، ومخاطر الزلل في اللسان ، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول عن لسانه : "هذا الذي أوردني الموارد " [٥] . وهذا عمر رضي الله عنه يمدح زهيرا الشاعر ، لأنه لا يعاظل في الكلام ، ولا يمدح

---

(١) رواه مسلم ، حديث رقم : ٢٠٤٦ .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الذهبي في سيرة اعلام النبلاء مرسلا من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ١ ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٥) السابق ، ص ١٩٤ .

الرجل إلا بما فيه ،قال لقوم من العرب : " أشعر شعرائكم من لم يعاظل الكلام ولم يتتبع حوشيه ، أي : لم يحمل بعضه على بعض ولم يتكلم بالرجيع من القول ولم يكرر اللفظ والمعنى " [١] . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : " أنذركم فضول المنطق ". و " كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم ، فإذا تكلم لم يكد يطيل ، وكان يقول : لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه ، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف ، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف " ورد عند الجاحظ : " وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره " وحكى المفضل : قلت لأعرابي : ما البلاغة ؟ فقال : الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خطل " [٢] وانتشرت مقالة الإيجاز ووعى معانيها المهتمين بشأن البيان إلى درجة أصبح كثيرون يفضلون الصمت على الكلام حتى جرت الأمثال بهذا المعنى أورد الجاحظ منها : " لو كان الكلام من فضة ، لكان السكوت من ذهب. " و" اللسان سبع عقور " و" مقتل الرجل بين فكيه ولحييه " ، وسئل أعرابي يجالس الشعبي عن طول صمته فقال: " أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم " [٣] .

---

(١) أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ص ٦٢٩ .

(٢) أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل ، ت ٣٩٥ ه ، رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ، (نشرت في مجموعة التحفة البهية) القسطنطينية ، ١٣٠٢ ه ، ص ٢١٨ . وانظر : عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص ١٢٧ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ٢ ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

إن الخطل والتطويل في الكلام يخرج المرء عن حد البلاغة ؛ فما من شك أن لكل كلام غاية ينتهي إليها ، ومن فقه المتحدث أن يصل إلى غايته ومطلوبه بأقصر الطرق وأكثرها مناسبة للمقام ، والتطويل يجعل من الوصول إلى الغاية أمرا بعيدا ، كما أن للسامع المخاطب نشاطا محدودا ، والإطالة تستنفد نشاطه فينصرف ذهنه عن غاية المتكلم ويدخل في حيز الاستثقال للكلام ومجه مما يفوت الهدف على المتحدث ، وهذا يعني نفي البلاغة عنه . وقد أورد الجاحظ أن ناسا قالوا لابن عمر رضي الله عنه : ادع لنا بدعوات . فقال : " اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا " فقالوا : لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن . قال : " نعوذ بالله من الإسهاب " [١] .

وقد برع النقاد والبلاغيون في استغلال مرامي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتقوا أكمام الكلام وبينوه وفصلوه واستنبطوا له أحكاما نجدها مبثوثة في كتب النقد والبلاغة ، فقسموا الإيجاز إلى إيجاز حذف وهو أن نحذف بعض أجزاء الكلام المعبر به عن المعنى المراد ، وهذا المحذوف قد يكون كلمة أجملة ولا بد للمحذوف أن يستغني الكلام عنه فيفهم بدونه ، ولا بد له من قرينة تدل عليه . وإيجاز قصر وهو تضمين الألفاظ القليلة المعاني الكثيرة من غير حذف[٢] . وفرقوا بينه وبين التطويل والحشو والإطناب

---

(١) السابق ، ص ١٩٥ – ١٩٦ .

(٢) فضل حسن عباس ، البلاغة فنونها وأفنانها ، ط ٤ ، دار الفرقان – عمان ١٤١٧ ه – ١٩٩٧ م ، ص ٤٥٩ وما بعدها .

والمساواة [١] وغيرها مما رست عليه قواعد البلاغيين والنقاد .

ومن جهة أخرى يمكننا الاستنباط من حديثه صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي الذي أطال في الكلام مسألة بيانية أخرى ، وهي ضرورة أن يتناسب الكلام نوعا وكما مع المقام الوارد فيه ، فيستحسن الإيجاز في مقام مخاطبة المسئولين نظرا لأن الوقت عندهم ذو قيمة عالية ، والتطويل يضيع الفرص في عمل ما هو مفيد عندهم ، وقد تحدث البلاغيون والنقاد في مسألة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومراعاة المقام ، وبينوا أن لكل مقام مقال .

النهي عن الغلو والمبالغة : تتناغم الفلسفة الإسلامية في نظرتها للحياة والوجود بكل أبعاده ، وتقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال في كل شيء ، وتستبعد تجاوز الحد والغلو والإغراق ،بل تدعو إلى ضده، وهذه القضية كما نجد انطباقها على أمور الدين والعبادة – كما في أقواله الكثيرة صلى الله عليه وسلم : " إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو " [٢] . لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد الله ورسوله " [٣] (والإطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه) وعن أنس رضي الله عنه أن أناسا قالوا: يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال " يا أيها الناس

---

(١) أحمد مطلوب ، أساليب بلاغية ، ط ١ ، وكالة المطبوعات – الكويت ١٩٨٠ م ، ص٢٠٣ وما بعدها .

(٢) رواه النسائي وابن ماجة، موقع: الفقه الإسلامي ، الشبكة العنكبوتية .

(٣) رواه البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، موقع : الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة ، الشبكة العنكبوتية .

، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي انزلني الله عز وجل [١] – فإنها تنطبق على أمور الحياة الأخرى ومنها الظاهرة اللغوية ؛ فقد أورد الجاحظ في بيانه بسند ... عن مطرف ابن عبد الله وعن أبيه قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد فقلنا : يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولا، وأنت الجفنة الغراء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان ، فإنما أنا عبد الله ورسوله " [٢] . أما قوله صلى الله عليه وسلم : "هلك المتنطعون " قالها ثلاثا : فيفسرها النووي بقوله : " ... أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم . " وهم المتعمقون المتشددون في غير مواضع التشديد[٣]. ونهيه صلى الله عليه وسلم يتناغم مع ما ورد في كتاب الله عز وجل قوله تعالى : (لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق) [٤] وقوله : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) [٥] والآيات في النهي عن مدح عزير والمسيح عليه السلام لدرجة تخرجهما عن حدود البشرية . وعل مذهب الوسطية في التعبير سار الصحابة رضوان الله عليهم ؛ فهذا ابن الخطاب رضي

---

(١) الحديث من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه ، موقع : الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة ، الشبكة العنكبوتية .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ٢ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٣) رواه مسلم وأبو داوود ، موقع : علماء الشريعة ، الشبكة العنكبوتية .

(٤) سورة النساء ، آية :١٧١ .

(٥) سورة المائدة ، آية : ٧٧ .

الله عنه يفضل زهيرا على غيره من الشعراء لكونه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ولا يعاظل في الكلام ، واستمر الحال في عهد الدولة الأموية ،فهذا الجاحظ يورد قول خالد بن عبد الله القسري لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فقد زينتها ، ومن كانت شرفته فقد شرفتها . فأنت كما قال الشاعر :

وتزيدين أطيب الطيب طيبا أن تمسيه أين مثلك أينا

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر بن عبد العزيز : إن صاحبكم أعطي مقولا ، ولم يعط معقولا " [١] . وهذا بعينه تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه ؛ إلى غاية لا يكاد يبلغها على حد تعبير أبي هلال العسكري في الصناعتين . وفي العصر العباسي نجد النقاد والبلاغيين يتلقفون هذه المسألة ويلوكونها بعقولهم بالتحليل والتفصيل والمقارنة حتى أخرجوا بابا من أبواب البديع بهذا الاسم (الغلو) ، وتحدثوا بالتفصيل عن مقاربات هذا المصطلح في حقله الدلالي كالحديث عن الإغراق والمبالغة والإفراط ، وقسموا الغلو إلى مردود ومقبول وعدوا من المقبول قول النابغة الجعدي بحضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم :

بلغنا السماء نجدة وتكرما وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا [٢]

وفي موسوعة الحديث:أنشد النابغة الجعدي :

وَإِنَّا لَقَــوْمٌ مَــــا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا إِذَ مَــا الْتَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِــرَا

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ٢ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) محمد احمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، ت : عباس عبد الستار ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – ١٤٠٢ ه – ١٩٨٢ م ، ص ٥١ .

وَتُنْكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحًا وَلا مُسْتَنْكِرٍ أَنْ تُعَقَّرَا

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ !! " ، قُلْتُ : إِلَى الْجَنَّةِ ، قَالَ : " نَعَمْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ " [١] .

وغيرها من المسائل التي جعلت منه مبحثا متكامل المسائل ، ولا يكاد كتاب نقدي أو بلاغي من كتب القدماء إلا وتعرض لمسائله، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر هذا ابن طباطبا يتحدث في كتابه عيار الشعر عن الإغراق ويذكر الأبيات التي أغرق قائلوها منها قول الطرماح ابن حكيم : من شعراء الدولة الأموية عاش بالشام اعتنق مذهب الأزارقة (خزانة الأدب) :

ولو أن حرقوصا يزقق مكة إذا نهلت منه تميم وعلت

ولو أن برغوثا علا ظهر نملة يكر على صفي تميم لولت

ولو ان أم العنكبوت بنت لهم مظلتها يوم الندى لاستظلت [٢]

كما تحدث عن الغلو تحت عنوان التشبيهات البعيدة من ذلك قول النابغة :

تخدى بهم أدم كأن رحالها علق أريق على متون صوار [٣]

---

(١) الحديث مرفوع رقم ٥ ، باب : ذكر سبب تضييع العمر ، موسوعة الحديث النبوي ، الشبكة العنكبوتية .

(٢) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، ص ٥١ .

(٣) السابق ، ص ٩٣ .

وقول خفاف بن ندبه :

أبقى لها التعداء من عتداتها ومتونها كخيوطه الكتان

والعتدات : القوائم . أراد أن قوائمها دقت حتى عادت كأنها الخيوط[١] .

وحتى يبقى النقاد والبلاغيون المبدعين في حيز الوسطية بعيدين عن الغلو ، استنبطوا ما يسمى بعمود الشعر ، وقد بينه المرزوقي في مقدمته في شرح المعلقات ، وأكده القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه حيث يقول :" وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقانته . وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته . ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض" [٢] .

بناء هيكلية الخطبة : من الأمور التي استحدثت في عصره – من خلال توجيهاته صلى الله عليه وسلم – التشكيل المفصل لأجزاء الخطبة بحيث يستطيع السامع او القارئ التمييز بين ما هو مقدمة وبين ما هو موضوع وبين ما يعد خاتمة ، وهذه الهيكلية تعد أحد ركائز التغيير عن الخطبة الجاهلية،

---

(١) السابق ، ص ٩٣ .

(٢) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل وعلي محمد البيجاوي ، المكتبة العصرية – صيدا ، ص ٣٣ – ٣٤ . وانظر : محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر ، ص ٣٧٦ .

والناظر في الخطبة الجاهلية يجد انها تشكل حلقة لا يدرى منها إلا نقطة البدء والانتهاء فلا وضوح في التقسيم وكأن الكلام يصب صبا على وتيرة واحدة . أما من حيث الموضوعات والخصائص الفنية ، فنجد أيضا نوعا من الاختلاف بين خطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخطب الجاهلية ، فمن حيث الموضوعات نجد الخطابة الجاهلية تدور حول قضايا الحرب والحماسة والصلح والمنافرات والزواج ، أما موضوعات الخطابة الإسلامية فقد جعلت التركيز ينصب على الخطابة الدينية أكثر من بقية الموضوعات . أما من حيث الخصائص الفنية فنجد الخطبة الجاهلية على درجة كبيرة من الإيجاز مع تضمنها مجموعة من الحكم والأمثال والاعتماد على السجع وانتفاء الاستطراد مع الاستغناء عن المقدمات ووحشية الألفاظ ومن الأمثلة على ذلك : خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني في يوم ذي قار ، وخطبة قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ التي رواها النبي صلى الله عليه وسلم ورواها لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه [١] . أما من حيث الخصائص الفنية للخطبة الإسلامية فنجد ابتعاد الخطبة عن وحشي الألفاظ وتعقيدات المعاني ثم الخلو من السجع إلا ما كان عفو الخاطر مما يقتضيه المعنى بالإضافة إلى الإيجاز غير المخل ناهيك عن اشتمالها على مقومات الصور الفنية والحقائق الصادقة وسلاسة الألفاظ . وهذه المعايير الجديدة مستفادة من خطبه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الجاحظ ، البيات والتبيين ، كتاب ٢ ، ج ١ ، ص ٥٢ .

ومن الامور التي أحدثها صلى الله عليه وسلم لتحسين أمر الخطابة توجيه أهل القول وتعليمهم ضرورة الابتداء بالبسملة والحمد لله في مقدمة الكلام ، وهو ما يعين السامع على تهيئة النفس لتلقي الكلام ، فهذا البدء أشبه ما يكون بأدوات التنبيه ، ومما ورد عنه من أقوال بهذا الشأن قوله في الحديث المرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه : " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر " أخرجه أبو داوود وابن ماجة كتاب روضة المحدثين . وفي روايات : لا يبتدأ فيه بحمد الله ، وفي روايات زيادة لفظ : (والصلاة علي) . هذه الإرشادات منه صلى الله عليه وسلم وعاها الناس في عصر الصحابة وما بعده بحيث طوروا الخطابة ، وتحدثوا عن أنواعها ومعايير جودتها ونواقض الجودة ، وعن أحوال الخطيب ومقايسه وصفاته حتى أسنان الخطيب وجهازه النطقي وقع تحت مقاييسهم ومواصفاتهم ، ومن أبرز مواصفات الخطبة عندهم ضرورة اشتمالها على شيء من كتاب الله أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلا وصفت بالبتراء أو الشوهاء قال الجاحظ: " وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن ؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع " [1] وينقل عن الهيثم بن عدي أن عمران بن حطان (خطيب مشهور في العصر الأموي) قال : " إن أول خطبة خطبتها عند زياد – فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي . ثم إني مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى

---

(١) السابق ، ص ١١٨ .

أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن " [١] . ثم إن أمر الخطابة لم يتوقف أثره عند هذا الحد بل تعدى إلى إنشاء مدارس لتعليم الخطابة فقد كان الخطباء خاصة أصحاب الوعظ منهم يتحلق حولهم تلاميذهم يدربونهم على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة ووصل بهم الحال إلى بلوغ الغاية من روعة البيان ومنهم غيلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء ، وجاء بعدهم من تحفظ كلامهم حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية [٢] .

إبراز الخطابة كجنس أدبي ذي أهمية بالغة : لقد استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة بارزة في الدعوة إلى الله وحث الناس على الدخول في الدين الإسلامي ، بالإضافة إلى توجيههم لما هو مطلوب منهم بأسلوب مشوق مقنع يخاطب من خلالها العقل والعاطفة معا ، كما كان يتخذ من فن الخطابة والشعر وسيلة للدفاع عن الإسلام مستعينا بمن يحسن هذه الفنون ، فقد ورد في سيرة ابن هشام أن وفد تميم قدموا بين يديه صلى الله عليه وسلم من شعرهم وبعض خطبهم يفاخرون فقال شاعرهم الزبرقان بن بدر:

أتيناكم كيما يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

بأنا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

فأجابه حسان رضي الله عنه :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى وجاه الملوك واحتمال العظائم

---

(١) السابق ، ص ١١٨ .

(٢) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١٥، بتصرف .

نصرنا وآوينا النبي محمدا على أنف راض من معـــد وراغم [١]

وفي رواية ابن القيم قال الزبرقان :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

فأجابه حسان :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع [٢]

وخطب عطارد بن الحاجب فقال: "الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو اهله الذي جعلنا ملوكا ... " فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس فرد عليه : "الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه..." [٣] .

فلما فرغ قال الأقرع بن حابس : " وأبي إن هذا الرجل لمؤتى لـــه ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أسلموا " [٤] .

---

(١) عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، ت : أحمد حجازي السقا دار التراث العربي – مصر ج ٥ ، ص ٥٦٦ .

(٢) ابـــن قـــيم الجوزيـــة ، زاد المعـــاد في هـــدي خـــير العبـــاد ، ت : شـــعيب وعبد القادر الأرنؤوط ، ط ٣ ، مؤسسة الرســـالة – عمـــان ، ١٤٢٣ ه – ٢٠٠٢ م ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، مؤسسة الأعلمي – بيروت ج ٢ ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٤) السابق ، ص ١٨٩ وما بعدها .

التنوع في الأداء الصوتي وطرق الإلقاء لاختلاف المقام : ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش " [١] .

وفي حديث أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن رفع الصوت في الدعاء معللا : " فإنكم لا تدعون أصما ولا غائبا [٢] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة يناجي ربه فليعلم أحدكم ما يناجي ربه ولا يجهر بعضكم على بعض في الصلاة " وفي رواية " ولا ترفعوا اصواتكم فتؤذوا المؤمنين " . أخرجه الطبراني واحمد في مسنده [٣] .

المتمعن في الأحاديث السابقة قد يرى في ظاهرها التعارض لكن عند التحقيق يتبين أن اختلاف الأحكام فيها يعود إلى اختلاف المقامات حيث إن لكل مقام مقال والبلاغة تقتضي مراعاة احوال المتلقين فانفعالات الخطيب وتطلعاته ومعانيه التي يريد إيصالها للمتلقين تتفاوت ما بين خبر وإنشاء واستفهام وتوبيخ وتهويل وتفخيم وتهوين وتعجيب ووعد ووعيد وتحزين وتشجيع وحماسة وكل هذه المعاني وغيرها تتطلب نوعا مناسبا من درجة الصوت وطريقة الإلقاء واستخدام الإشارات ؛ فيستخدم من الصوت لينه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، والحديث عن جابر رضي الله عنه .

(٢) الحديث رواه الشيخان .

(٣) أخرجه الطبراني وأحمد في مسنديهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وشدته ورخاوته وعلوه ومده وتقصيره وتكراره وإفراده حسب ما يعين على فهم المعنى المراد ، فالصوت في كثير من الأحيان ينم عن شخصية صاحبه ويعين على ترجمة معانيه وتوصيلها بصورة أدق .

إن جريان الخطبة على وتيرة واحدة في الأداء قد يتطلبه مقام من المقامات لا كل المقامات ، واستخدامه في كل المقامات خروج عن حد البلاغة لما يبعثه من الملل والسأم في نفس المتلقي .قال النووي : " يستحب للخطيب أن يفخم امر الخطبة ، ويرفع صوته ويجزل كلامه ، ويكون مطابقا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب [١] . ووقوع الذم على المتكلم عند مخالفة مقتضيات المقام وما يناسبها ، فقد جاء التوجيه الإلهي موضحا مبادئ استخدام الصوت في عدة آيات منها : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) [٢] ، و (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الاصوات لصوت الحمير) [٣] و(لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ...) [٤] ومن المعلوم أن السنة المطهرة ما هي إلا تفسير لما جاء في كتاب الله .

البيئة والأدب : روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قول النبي صلى الله عليه وسلم " من بدا جفا ... " [٥] وأورد هذا الحديث جماعة من

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ، ج ٦ ، ص ٢٢٢ .

(٢) سورة الحجرات ، آية : ٤ .

(٣) سورة لقمان ، آية : ١٩ .

(٤) سورة الحجرات ، آية : ٢ .

(٥) ذكره السيوطي وصححه الألباني .

المفسرين عند تفسير قوله تعالى فيما يتعلق بالأعراب من سورة التوبة : " الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله " [١] ومجمل الكلام يشير إلى خشونة الأعراب وغلظهم في التعامل ، واستخدامهم لوحشي الكلام ، ووعورة التعبير عن المقاصد ؛ لذلك كانت هذه القاعدة العامة منه صلى الله عليه وسلم : " من بدا جفا " بمعنى من سكن البادية صار فيه جفاء وغلظة طبع كما هو حال الأعراب . أما البلاغيون والنقاد فقد استفادوا من إشارته هذه في بيان أثر البيئة على الإنسان وقوتها في تكوينه اللغوي والأدبي ؛ فالشدة والصعاب في المكان يتبعها شدة وغلظ في طرق الأداء القولي .

ومن أوائل النقاد الذين أشاروا إلى أثر البيئة ابن سلام الجمحي في طبقاته حيث جعل التقسيم بالنظر إلى المكان أحد ركائز التفاضل بين الشعراء فذكر شعراء المدينة وشعراء مكة والطائف وتحدث عن لين شعر عدي بن زيد ؛ لأنه سكن الحيرة وراكز الريف [٢] وذلك لما انقدح في ذهنه من أثر البيئة في التكوين الشعري لدى الشعراء [٣] ، وكذلك الحال عند غيره من النقاد أمثال ابن قتيبة والقاضي الجرجاني والصولي وقدامة وغيرهم .

---

(١) سورة التوبة : آية : ٩٧ .

(٢) ابن سلام الجمحي ، ت ٣٣٢ ه طبقات فحول الشعراء ، ت : محمد أحمد شاكر . وانظر : محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢١ .

(٣) إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي ، ص ٨٠ .

واستمر الحديث عن أثر البيئة عند النقاد عبر العصور حتى عصرنا الحديث فنجد النقاد أيضا يثيرون هذه القضية ؛ فهذا أحمد الشايب يتحدث عن أثر البيئة في تكوين الذوق الأدبي ويشير إلى قصة علي بن الجهم لما ورد على المتوكل في بغداد وأنشده مادحا :

أنت كالدلو لا عدمتك دلوا من كثير العطايا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

فهم بعض الحضور بقتله ،فقال الخليفة : خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده ،... فلما أقام (الشاعر) في الحضر بضع سنين ، قال الشعر المتزن الملائم للذوق الحضري الجديد والبيئة الطارئة مثل قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر [١]

وفي الأمم الأوربية نجد الناقد هيبوليت تين يعزي العبقرية في الأدب إلى ثلاثة عوامل هي : البيئة والزمن والجنس [٢] .

مقتضيات المقام : من القضايا التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم من المسائل المتعلقة بالبلاغة والنقد ما له مساس مباشر بمقتضيات المقام والتي هي

---

(١) أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢) إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، ط ٢ ، دار المسيرة – عمان ، ١٤٢٧ ه – ٢٠٠٧ م ، ص ٦٦ .

جزء من مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد قسم العلماء الخطاب إلى مجموعة من الجزئيات منها: المرسل والمرسل إليه والرسالة والوعاء الناقل ، إلخ....، وقد اشترطوا لفهم الرسالة الدراية الواعية من المرسل في أحوال وظروف المرسل إليه من حيث البيئة والثقافة والحالة النفسية والذكاء والفطنة وغيرها من المسائل ، وعدوا عدم إدراك ذلك إخفاقا في جانب بلاغة الخطاب وبهذا المعنى نجد مجموعة من الإشارات في بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم منها ما أورده البخاري عن علي موقوفا :"حدثوا الناس بما يعرفون . أتحبون أن يكذب الله ورسوله " [١] وفي مسلم عن ابن مسعود قال : " ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " [٢] وفي كشف الخفاء للعجلوني :" أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم " [٣] .

فلا بد إذن من مراعاة أحوال المخاطبين عند سرد الخطاب ، فمن مراعاة أحوال الثقافة سؤال النبي صلى اله عليه وسلم للجارية : أين الله فقالت: في السماء فقال : إنها مؤمنة [٤] ، ومن مراعاة البيئة رسالته صلى الله عليه وسلم إلى وائل ابن حجر الكندي ومنها "... إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب ومنها : وفي التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفي السيوب الخمس ، ومن زنى من بكر فاصقعوه مائة ،

---

(١) رواه البخاري عن علي رضي الله عنه موقوفا .

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني ،كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث ، ط مؤسسة الرسالة – ١٤٠٥ ه ، ج ١ ص ٤٨ .

(٤) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ج ١٣ ، ص ٣٥٩ .

واستوفضوه عاما ..." [١] ومن المعلوم أن الأقبال العباهلة هم ملوك حمير التي تختلف لهجتها وتراكيبها إلى حد ما عن لغة الشمال ، ويؤكد ذلك إجابته صلى الله عليه وسلم للوافد من حضرموت : هل من أمبر أمصيام في أمسفر ، فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم : ليس من أمبر أمصيام في أمسفر[٢] ومن مقتضيات المقام أيضا ما نجده في إبقائه صلى الله عليه وسلم على وضع الكعبة كما هي دون تغيير لمراعاة حداثة الإسلام في الناس فقد ورد قوله لعائشة رضي الله عنها : " يا عائشة ، لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلتها بابين: باب يدخل الناس وباب يخرجون " [٣] وقد فهم البخاري من هذا الحديث ضرورة مراعاة المقام في الفهم فترجم له بقوله : باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقع في أشد منه . كما فهم كثير من العلماء هذا الفهم وعدوا الحديث من أعمدة الموازنة بين المصالح وأنه لا بد من تقييم قدرة فهم السامع خوفا من الوقوع بما هو أشد لقصور فهمه عنه .

وفي حديث آخر نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خص معاذا بحديث ؛ وذلك لعلو فهمه دون كثيرين غيره أخرجه البخاري ونصه : " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من قلبه إلا حرمه الله على النار "فقال معاذ يا رسول الله : ألا أخبر به الناس فيستبشرون ؟ قال :

---

(١) وليد سعيد عيسى شيمي،في التحليل البلاغي النقدي للنصوص، ط ١ ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – حائل ، ١٤٢٧ ه / ٢٠٠٦ م ، ص ٥٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، ج ٥ ، ص ٤٣٤ .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل مكة ، رقم : ١٥٨٤ .

إذن يتكلوا "وأخبر به معاذ عند موته تأثما [١] . وما من شك أن الفائدة الظاهرة من هذا الحديث يتفاوتون بدرجة الفهم وأن الخطاب لا يحسن به الإبلاغ للجميع مخافة الفهم الخاطئ .

وقد استفاد أرباب البيان من أحاديثه وجعلوا منها قواعد للبلاغة العربية حيث عرفوها : بمطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته [٢] وأبرز من تناول مسألة المقام ومقتضياته رسالة بشر ابن المعتمر التي أوردها الجاحظ في بيانه منها : " ...فكن في ثلاث منازل ؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال" [٣] . وفي كتاب الإحياء للغزالي : " كل (بكسر الكاف) لكل عبد بمقدار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية (علم المعاني) دار النهضة العربية –بيروت ، ١٤٠٥ ه – ١٩٨٥ م ،ص ١١ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، كتاب ١ ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

لتفاوت المعيار "[١].

البيان بالحركة أو الإشارة : ومن توجيهاته البلاغية صلى في جانب البديعيات ما أطلق عليه عند أرباب البديع بالقوافي الحسية ، ويتمثل في قيام الحركة أو الإشارة بالنيابة عن اللفظ ، وعدوا منه قول النبي صلى الله عليه وسلم " بعثت أنا والساعة كهاتين – وأشار بالسبابة والوسطى – " [٢] كما يحمل عليه إشارته بعينه لعائشة رضي الله عنها التي فهمت منها حاجته إلى السواك وهو في النزع الأخير من حياته صلى الله عليه وسلم ، ومنه ما رواه عنه صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل : " عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال،ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال : إن هذا لحق كما أنك ها هنا ، أو كما أنك قاعد [٣] ومنه قوله : " أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى " [٤] و" المؤمن للمؤمن

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ط ، البابي الحلبي – القاهرة ج١ ، ص ٥١ .

(٢) محمد علي الصابوني ، من كنوز السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) مكتبة الغزالي – دمشق١٤٠١ ه – ١٩٨١ م ، ص ٣٦ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٤) أخرجه أحمد والبخاري وأبو داوود ، وانظر : صحيح الأدب المفرد للشيخ ناصر الدين الألباني والحديث عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه رقم ١٠١ .

كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه " [١] و" التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات " [٢] وحديثه عن الكبائر وهي الإشراك بـــالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال : " ألا وقـــول الـــزور فمـــا زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " [٣] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في حـــديث زينب : " ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومـــأجوج مثل هذه – وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها – " [٤] ، ومنه إشارته صلى الله عليه وسلم إلى عينه و أذنه عند قراءته "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا " [٥] .

ما من شك أن البيان مع استخدام الإشارة أثناء الكلام ملفت للنظر طارد للشرود الذهني يجعل المخاطب أكثر انتباها وتركيزا واستمتاعا بمرامي الكلام من خلال استخدامه لأكثر من حاسة عند متابعة المتكلم خاصة حاستي السمع والبصر ، وما من شك أن استخدام أكثر من حاسة كما هو مقر في العلوم التربوية يجعل من النص أكثر فهما ووضوحا ويعين على تأكيد

---

(١) متفق عليه ، والحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة .. ، باب تحريم المسلم ... رقم : ٢٥٦٤ . وانظر : شرح الأربعين نووية ، الحديث ٣٥ .

(٣) الحديث متفق عليه ، وانظر : رياض الصالحين للنووي ، حديث رقم : ١٥٥٨ .

(٤) محمد علي الصابوني ، من كنوز السنة ، ص ٣٦ .

(٥) سورة النساء ، آية : ٥٨ . وانظر : فتح الباري : باب قوله تعالى : (وكان الله سميعا بصيرا) .

بعض جوانب الكلام ، وقد طور هذا النوع عند البديعيين واستخدم في الشعر على نحو يسترعي الانتباه مع حصول المتعة الجمالية عند التلقي لكنه في معظمه بطريقة صناعية يعمل فيها الفكر أكثر من عمل العواطف ، ،والفكرة في القوافي الحِسية أن الشاعر يجعل الحركة أو الإشارة تنوبُ عن اللفظ في موضع القافية مُوقعَّة على عروضها ، و هو نهاية في الظرف و الملاحة لأن من المعاني ما تكُون فيهِ الإشارة أو الحركة أبلغ من اللفظ دِلالة و أبدعُ موقعاً و أحسَنُ إطراباً و مِثالُه قول أحدِهم :

ظَفِرتُ بِمعشُوق لهُ الحُسنُ حُلةٌ فَقَبلتُهُ شفعاً و قُلتُ لهُ.....

فقالَ أتَهوانِي ؟ فقُلتُ لهُ: نعم فقَالَ و منْ غيرِي ؟ فقُلت له...

البيتان من الطويل، و قد جعل فاقية البيت الأول صوت القبلة مُكرراً مرتين كما يدُل عليه قوله (شفعاً) و قافية البليت الثاني الصوت الصادر من الإنسان و الدال على النفي مُكرراً أيضاً .. و هو ما ينشأ عن القرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقدمتين من أعلى الثغر ، و ليس في البيتين من الحُسن كهذه المليحة التي أبدعها قائل البيت ، ولما كانت مما لا سبيل إلى كتابته بالخط صارت أملحُ وأجود .

ومن هذه القوافي قول الشاعر:

ولقد قُلتُ للمليحةِ قُولي من بعِيدٍ لِمن يُحِبُك .

فأشارت بِمعصمٍ و بنان أيُها العاشِقُ المُتيَّـــمُ....

والبيتان من الخفيف ، وعجُز كل منهما ينقُصُ سببين خفيفين ، فجعل تمام البيت الأول حركة اليد التي يُشار إليها بمعني : أقبل مُكررة ، وهي تُوازن السببين في امتداد الزمن ، وجعل تمام البيت الثاني حركة

اليد التي يُشار بها بمعني : اذهب ، والقافيتان تستخدمان حاسة البصر [١] .

وهذه الناحية من طرق الخطاب تتنوع فيها الأساليب ما بين الكلام والتطبيق بالإشارة وهو ما تحتويه البلاغة وبهذا المعنى يقول الشايب : " ...فالبلاغة تحوي هذه الناحية التطبيقية التي تبدوا واضحة في الملائمة بين الكلام وبين حاجة القارئ أو السامع في هذه الأحوال المتباينة ؛ فالخطابة لها موقفها ورجالها وأساليبها ، والكتابة تحسن حيث لا يحسن الشعر ، والحوار يجود حيث لا تنفع المحاضرة بشيء حتى حركات الخطيب والممثل كثيرا ما تكون جزءا من التعبير البلاغي " [٢] .

---

(١) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الكتاب اللبناني –بيروت ، ١٣٩٤ ه – ١٩٧٤ م ، ج ٣ ، ص٤٥ .

(٢) أحمد الشايب ، الأسلوب ، ط ٨ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٨ م ، ص ٣٥ .

الخاتمة

يتبين لنا مما سبق :

١- أن جهودا كبيرة مبذولة في تقعيد المفاهيم المتعلقة بالنقد والبلاغة في جانب الأنواع النثرية المعروفة في عصره صلى الله عليه وسلم ، وأنها ذات حيز يتناسب مع اهمية الأدب وأثره على النفس البشرية .

٢ – إن هذه القواعد والمعايير تتناغم مع النظرة الإسلامية الشاملة للكون والحياة ، وهي جزء لا يتجزأ من منظومة الفلسفة الإسلامية العالمية.

٣ – إن ما يتعلق بالمضامين في هذه الأنواع النثرية يعد محور القبول إذ يجب أن يخدم تطور الإنسان ورفعته كإنسان لا أن ينزل به إلى مصاف المخلوقات الأقل قيمة .

٤ – إن المضامين وحدها غير كافية لجعل العمل الأدبي النثري مقبولا .

٥- إن النظرة الجمالية للعمل الأدبي تنبع من شكله ومضمونه معا .

٦- إن الأدب الحقيقي ليس في اجترار اللغة بقدر ما هو محاولة تشكيل إبداعي من خلال استغلال معطياتها وصيغها لإنتاج معطيات جديدة متولدة .

تم بحمد الله

المراجع

١ – الآمدي، الموازنة ، ت : محمود توفيق ، ط 1.

٢ – إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديثمن المحاكاة إلى التفكيك ، ط 2 ، دار المسيرة – عمان ، 1427 ه –2007 م .

٣ – إحسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ط 4 ، دار الثقافة ،بيروت ، 1404 ه – 1983 م .

٤ – الأصفهاني أبو الفرج ، كتاب الأغاني ، ط 6 .

٥ – أحمد أمين ، النقد الأدبي ، ط 3 ، مكتبة النهضة العربية ، 1963م .

٦ – أحمد الشايب ، الأسلوب ، ط 8 مكتبة النهضة المصرية ، 1988 م .

٧ – أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبي ، ط 8 ، مكتبة النهضة المصرية .

٨ – أحمد مطلوب ، أساليب بلاغية ، ط 1 ، وكالة المطبوعات – الكويت ،1980م .

٩ – أحمد مطلوب ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ط 2 ، مكتبة لبنان – 1996 م .

١٠ – إسماعيل بن عمرالقرشي ابن كثير أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ت : علي شيري ، ط 1 ، دار إحياء التراث العربي – 1408 ه – 1998م.

11– إسماعيل بن محمدالجراحي العجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث ، طمؤسسة الرسالة –1405ه.

١٢ – الأصفهاني أبو القاسم الحسين ابن محمد الراغب،المفردات في غريب القرآن ، تحقيق صفوان عدنان داوودي / دار العلم الشامية ، ط دمشق 1412هـ.

١٣ – الترمذي محمد بن عيسى، كتاب السنن (الجامع المختصر) من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل ، ت: بشارعواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 / 1996 م . بيروت .

١٤ – الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ت : عبد السلام هارون ، ط 3 ، مؤسسة الخانجي – القاهرة .

١٥ – الجرجاني القاضي علي بن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل وعلي محمد البيجاوي ، المكتبة العصرية – صيدا ، ص 33 – 34 .

١٦ – الجمحي ابن سلام ، ت332 هـ طبقات فحول الشعراء ، ت محمد أحمد شاكر. وانظر: محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب.

١٧ – الخطيب القزويني ، جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن ، ت 739 هـ ، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح ، ت وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط 3 ، دار الجيل – بيروت ، 1412هـ – 1993 م .

١٨ – الخفاجي (ابن سنان) عبد الله بن محمد بن سعيد ، ت : 466 هـ ، سر الفصاحة ، ط 1 ، دار الكتب العلمية – بيروت،1402هـ– 1982م.

١٩ – الدينوري (ابن قتيبة) عبد الله بن مسلم ، ت : 276 هـ ، الشعر والشعراء ت : أحمد محمد شاكر ، ط دار المعارف – القاهرة ،1967

٢٠ – الرافعي مصطفى صادق ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، 1394هـ – 1974 م .

٢١ – الزوزني أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع ، دار صادر – بيروت ، 2002 م .

٢٢ – السخاوي ، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن فتح المغيث بشرح ألفية الحديث ، ت : عبد الكريم الخضيرو محمد الفهيد ، ط 1 ، دار المنهاج– جدة .

٢٣ – شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ط 6 ، دار المعارف ، القاهرة.

٢٤ – شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط 4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1965.

٢٥ – الصابوني محمد علي ، من كنوز السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) مكتبة الغزالي– دمشق ، 1401 هـ –1981م.

٢٦ – صلاح عبد الفتاح الخالدي ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط 1 ، دار الفرقان – عمان ، 1403هـ –1983م .

٢٧ – الطبري أبو جعفر محمدبن جرير ، تاريخ الامم والملوك ، مؤسسة الأعلمي – بيروت .

٢٨ – عبد الرؤوف مخلوف ، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن،دراسة تحليلية نقدية ، دار مكتبة الحياة – بيروت،1978م.

٢٩ – عبد العزيز عتيق ، في البلاغة العربية (علم المعاني) دار النهضة العربية – بيروت ، 1405 هـ –1985م.

٣٠ – عبد العزيز عتيق ، تاريخ النقدالأدبي عند العرب ، ط 4 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1406 هـ –1986م.

٣١ – عز الدين اسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي – القاهرة ، 1412هـ – 1992 م .

٣٢ – العسقلاني ابن حجر ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، دار الريان للتراث – بيروت ، 1407 هـ – 1986 م .

٣٣ – العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، ت 395 هـ ، رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم ، (نشرت في مجموعة التحفة البهية) ط القسطنطينية ، 1302 هـ .

٣٤ – العلوي محمد احمد بن طباطبا ، عيار الشعر ، ت : عباس عبد الستار ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت –1402 هـ – 1982 م .

٣٥ – الغزالي أبو حامدمحمد بن محمد،إحياء علوم الدين ، ط ، البابي الحلبي – القاهرة.

٣٦ – فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها ، ط 4 ، دار الفرقان – عمان ، 1417 ه – 1997م.

٣٧ – محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي (ابن قيم) الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ت شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ، ط 3 ، مؤسسة الرسالة – عمان ،1423 ه – 2002م .

٣٨ – محمد حسن عبد الله،مقدمة في النقد الأدبي ، ط 1 ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، 1395 ه – 1975 م .

٣٩ – محمد صالح الشنطي ، في الأدب العربي القديم ، ط 4 ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – حائل ، 1426 ه – 2005م .

٤٠ – محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، دار نهضة مصر.

٤١ – المصري ابن منظور ، ت : 710 ه ، لسان العرب ، دار صادر – بيروت ، 1995 م .

٤٢ – مصطفى أحمد عبد العليم ، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، المنتدى الإسلامي ، انترنت.

٤٣ – المعافري عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية ، ت : أحمد حجازي السقا ، دار التراث العربي – مصر

٤٤ – ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، ط 7 ، دار المعارف – مصر ، 1988م .

٤٥ – النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن دينار ، السنن الصغرى ، ط جمعية المكتز الإسلامي / القاهرة ، مصر .

٤٦ – نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ط 2 ، مكتبة الأقصى– عمان ، 1982م.

٤٧ – النووي ، الإمام الحافظ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف ، شرح الأربعين نووية ، ط 1 ، مكتبة المنار / الزرقاء – الأردن ، 1980م.

٤٨ – وليد سعيدعيسى شيمي ، في التحليل البلاغي النقدي للنصوص ، ط1 ، دار الأندلس للنشر والتوزيع – حائل ، 1427 ه – 2006 م.

٤٩ – اليحصبي القاضي أبو الفضل عياض ، ت 544 ه ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وبحاشيته : مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفا ، لأحمد بن محمد الشمني ، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت ، 1409 ه – 1988م .